الولـي

يتعالى نقيق الضفدع ليصنع سيمفونية ليلية موحشة. ركود الهواء يكاد أن يخنق الجميع؛ فخرج الخلق إلى حواري القريـــة يتـــسامرون. تهب نسمات رقيقة من قبل الترعة معبقة برائحة الـــروث و الـــدريس والمصارف. خوار البهائم يتفاعل مع نقيق الضفدع فيكمـــل اللوحـــة الليلية المعتادة.

يتناقش نفر من الناس حول أسعار المواشي و محصول الموسم و كيف أنه لم يؤت الأرباح المنتظرة. يتبادلون أكواب الـــشاي القاتمـــة كحلكة الليل بينما "براد" الشاي يغلي ببطء، يبدأ في التزايد على موقـــد النار أمامهم. يتبادلون لف السجائر و تدخينها بنشوة يفتقـــدونها طيلـــة نهارهم. ينتحي بعض شباب القرية أحد الأركان لتدخين سجائر البانجو برائحتها النفاذة.

تنطلق صرخة قاسية تشق هدوء الليل ليتعالى صـــياح الـــدجاج المذعور. تعاود الصرخة رنينها. يسرع الرجال مـــذعورين صـــوب مصدرها. بيت سيد القرية و ملاذهم. يقول أحدهم:

– يا لطيف اللطف يا الله ، ربنا يستر، خير إن شاء الله.

يتساءل آخر:

– خير؟ إيه اللي حصل يا أم شربات؟

بحسرة بينما يداها تصفع وجهها بطريقة لطم عجيبة:

- الحاج عبد القوي، الله يرحمه.

يتعالى صوت الرجال:

- لا اله إلا الله

- كان راجل طيب و بيخدم الناس كلها.

- كان أصلح الخلق، يصلي جميع الفروض في أوقاتها.

تنطلق زوجته في الصراخ اللاطم وشق صدرها. يبزغ بياض لحمها المكتنز ليضئ ظلمة الليل بضوء فسفوري شهواني. ترتمي أرضا ناثرة التراب على رأسها. تتقلب على الأرض بطريقة مجنونة لتنحسر ملابسها عن فخذين ممتلئين بيضاوين. ينظر إليها شباب القرية بعيونهم الجائعة. يتلصصون في كشف المزيد. يطأطئ الرجال رؤوسهم ليقول أحدهم بنخوة غاضبة:

- قومي استري نفسك يا مرة .

تأخذها النسوة إلى الداخل بينما هي في تمام انهيارها.

***

يتحوّط الرجال حول البيت بينما عيونهم مسافرة في رحلة أبدية مع ظلمة الليل. يذكرون الموت و ساعة الحساب و عذاب القبر و نعيمه وفضائل الميت وكرمه عليهم في الأيام الفائتة. يقول أحدهم:

- ابعتوا حد يستعجل خروج تصريح الدفن يا رجال، إن إكرام الميت دفنه.

يرد آخر:

- راح رضوان لتخليص الأمر من المركز ، ربنا يسوقه.

- تأخر كثيرا و انتصف الليل.

يقول آخر:

- الساعة كام دلوقت؟

- واحدة بعد نص الليل.

- كان أطيب الرجال، وكان راجل بتاع ربنا، في يوم كانت مراتي حامل و الألم كان زاد عليها قوي ، والوقت ماكانش وقت ولادة ، حكيت الأمر للحاج عبد القوي فجاء معي و ملّس على بطنها فلم تشعر بأي ألم ، الله يرحمه كان وليّ.

يقول آخر:

- كان دايما سرحان ، و إذا قعدت معاه تلاقيه يرد السلام بالرغم من إن الطريق خالي ومفيش حد ألقى عليه أحد السلام، كنت دايما بستغرب ، في يوم سألته وأنا خايف ، فقال أن سيدنا الخضر مرّ من أمامه و معه نفر من الصالحين وألقوا علينا السلام.

تقشعر أبدان الرجال بينما يتبادلون حكاياتهم عن الرجل الصالح.

***

تجلس النسوة في فناء الدار متشحات بالسواد القاتم. عيونهن شديدة الحمرة من أثر البكاء. يتبادلن الحديث الباكي عن الرجل الصالح الذي لن يعوّض. يحاولن التخفيف عن امرأته التي فقدت رجلا عقمت النساء عن الإتيان بمثله.

***

في أحد الأركان تجمّع بعض الأطفال يلهون غير عابئين بالأمر. ينفصل أحدهم متجها نحو غرفة الميت. يدفع الباب بـبطء ويـدخل. النعش الراسخ يتوسط الحجرة المظلمة إلا من شعاع الضوء المنسرب من فرجة الباب الضيقة. تختمر في ذهن الطفل الشقي أحـد الأفكـار الشيقة لإخافة ذويه. يحكم إغلاق البـاب. يـشعل مـصباح الغرفـة وسرعان ما يطفئه.

***

يقول أحد الرجال:

– خرجت أنا و الحاج عبد القوي في يوم عـشان نـستحم فـي الترعة وفي الوقت اللي كنت بخلع فيه جلبيتي بصيت.....

يصمت الرجل و قد ارتسمت على وجهـه إمـارات الفـزع والدهشة. يزعق أحدهم:

– فيك إيه يا عبد الستار؟

يقول بعد فترة صمت و قد تلجلج لسانه:

– الحاج عبد القوي بيولع النور و يطفئه.

– يا رجل... باين عليك بدأت تخرف من....

و أضئ النور وأطفئ مرة أخرى فانطلقت الأصوات هاتفة:

– مدد... مدد يا شيخ عبد القوي مداااد ، بركاتك يا سيدنا.

***

لم ينتبه الأطفال لانفصال أحدهم عنهم. وفجأة أضئ نور غرفة الميت فانطلقوا مذعورين نحو جلسة النساء ليخبروهن:

- أمه ، أمه ، فيه عفريت في غرفة الميت.

ترد المرأة بغضب:

- امشي يا ولد.

يقول آخر:

- النور بيولع و يطفأ لوحده.

تتحرك إحدى النسوة نحو الغرفة لتطمئن الأطفال.

***

يبتهج الولد الشقي لسماعه أصوات الذعر الصادرة من رفاقه، يكرر التجربة، يتسلل إليه صوت أقدام تقترب. يسرع بالاختفاء داخل الدولاب خشية العقاب. تدخل المرأة في إثرها الأطفال. تقول غاضبة:

- عفاريت ولاد عفاريت، والله ما عفريت إلا انتم، يلا أخرجوا بعيد.

صوت جلبة تأتيها من الخارج. تطفئ النور وتنظر من خلف زجاج النافذة لتستطلع الأمر. ترى الرجال مصوبين عيونهم نحو النافذة. تسرع خارجة كيلا يراها الرجال بشعرها المكشوف.

***

يتجمهر أهالي القرية ذاهلين. مثبتة عيونهم نحو النافذة. يلوح خيال آدمي يقف خلف الزجاج. يزداد لغطهم و صياحهم:

- الله أكبر، سبحان الله.
- الشيخ بيبص علينا البصّة الأخيرة، لا يهون عليه فراقنا.
- كان تقيا ورعا، ووليا من أولياء الله الصالحين.
- بيقولوا أنه صاحب السيد البدوي و المرسي أبو العباس.

يقول أحدهم:

- في يوم كنت رايح لأرضي قبل الفجر وشفته من بعيد بيمشي على الماء وكأنه على الأرض بالضبط، يومها حطيت طرف جلبيتي في حنكي وقلت يا فكيك ، فسمعت صوته مالي الدنيا حواليا وقالي " لا تخبر أحدا بالأمر يا عوضين، إنها كرامة".

آخر: - فاكرين يوم شب الحريق في بيت أبو سريع؟ كان الحاج معانا يومها بيساعدنا في الإطفاء، يومها رأيته بعيني اللي حياكلها الدود وهو ماشي في النار وبقى وسطها تمام و معرفش لحد دلوقتي منين كان بيجيب الماء اللي كان بيطفي بيه، وبالرغم من إنه كان في مركز النار إلا أنها كانت بردا وسلاما عليه.

تنطلق أصوات قليلة مصدقة على كلامه ليقول آخر:

- كنا قاعدين في يوم وفجأة لقيناه بينتفض وبيقف في خشوع، ولما بصيت له نغزني وقال لي " قف أيها الزنديق سيدنا النبي يعبر من أمامنا و معه الصحابة".

يقول أحدهم:

- لازم نبني له مقام يليق بيه؛ عشان يزوره الناس ويتبركوا بيه، دا ولي من أولياء الله الصالحين، و لو معملناش كدا ممكن يغضب علينا ويحرق البلد باللي فيها.

***

يخرج الولد الشقي من مخبأه. يتجه صوب النافذة. يحاول فتح الزجاج. يجد في الأمر صعوبة. يجذبه بقوة فينجذب نحوه مصطدما بالحائط. يتحطم الزجاج ليسرع الولد جافلا خارج الغرفة. يتزايد لغط الرجال و هتافاتهم مؤكدة قدرة الشيخ وصلاحه وتقواه. تتفتق أذهانهم عن المزيد من الروايات و الكرامات المنسوبة إلى الشيخ، بينما نقيق الضفدع يتعالى صانعا سيمفونية رائعة مع خوار البهائم المحمل عبر نسمات الهواء الرقيقة، المحملة برذاذ الندى و رائحة الروث و مياه المصارف..